الصوفيـــة

للدكتور عبد الوهاب عزام

سألني الأديب ابراهيم الجلان رأيي فيما يثور من الجدال حول الصوفية وعن فتوى الطرطوشي التي نشرت في الرسالة وفيها « مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلال، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله، وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه السامري كما اتخذ لهم عجلاً جسداً له خوار قاموا يرقصون حوله ويتواجدون » الخ

وهذا جوابي للسائل الفاضل :

— ١ —

كان في المسلمين منذ شاعت هداية الإسلام عبّاد زهاد لا يتميزون بلباس أو شارة، ولا يفارقون الجماعة في قول أو فعل؛ ثم امتاز منذ أواخر القرن الثاني جماعة من الزهاد باسم الصوفية وحدثت لهم سنن وآداب ميزتهم عن جمهور الأمة، ونشأت بينهم أقوال وأفعال لم تكن معروفة بين المسلمين. ثم نبغ لهم إمام بعد آخر كان لأقوالهم وأفعالهم آثار واضحة في اتجاه الطريقة وحدودها

كان التصوف أول الأمر زهداً، ثم صار معرفة وحباً، ثم صار فناء وخطت سبل لتربية السالكين فصار التصوف طريقة، ونشأت فيه أساليب من النظر واختلط به آراء من الفلسفة فصار له فلسفة أو ما يشبه الفلسفة

وإذا أردت أن تتبع تطور التصوف في تاريخ الرجال فانظر في سير أمثال الحسن البصري وسفيان الثوري ثم أمثال شقيق البلخي وابراهيم بن أدهم والسري السقطي ومعروف الكرخي، ثم أمثال الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي ثم الحلاج والسهروردي المقتول وابن العربي

وليس التصوف مذهباً واضح الحدود بيّن المعالم يجمع كل من دخل فيه على آراء متفقة، وأعمال متشابهة، بل فيه آراء مختلفة وأقوال متباينة، وسير شتى. فيه تصوف الخاصة والعامة وطريقة المقتصدين والغلاة وأقوال الصالحين والسكارى

— ٢ —

وقد ظهر في التصوف منذ امتازت معالمه ورسخت رسومه أهل الصحو وأهل السكر؛ الأولون يضبطون أنفسهم ويؤلفون بين أقوالهم وأعمالهم وبين الشريعة، والآخرون يرمون حين يغلبهم الوجد بالكلام المغلق المبهم أو القول لا يوافق الحدود التي حدّتها الشريعة للعقائد والأعمال

وأرى أن أوضح مثل لهذين الضربين : الجنيد البغدادي وأبو يزيد البسطامي. كان الجنيد وقوراً رزيناً لا يغلبه الوجد على نفسه؛ وأبو يزيد — كالشبلي البغدادي — يرمي بالكلمة بعد الكلمة ينكرها الناس ويضجون منها أو يعجبون لها ويتحيرون، فيجتهد الجنيد في تفسيرها وتأويلها. وفي كتاب اللمع لأبي نصر السراج أمثلة من هذا

وممن التزموا المحجة الواضحة كالجنيد جماعة ألّفوا في التصوف وبينوا حدوده وملاءمته للشرع، مثل أبي القاسم القشيري صاحب الرسالة، والسراج صاحب اللمع، وأبي طالب المكي صاحب قوت القلوب، والغزالي

— ٣ —

والخلاف بين العلماء أهل الظاهر، والصوفية أهل الباطن، قديم مديد نشأ منذ صار التصوف طريقة واستمر إلى يومنا

وحسبك أن تقرأ ما كتب ابن الجوزي في كتابه (تلبيس إبليس) : « العلماء يرمون الصوفية بالخروج على الدين، والصوفية يرمون العلماء بالوقوف على الصور والأشكال، ويرون أن علمهم لا يغني في سبيل الله فتيلاً ». وكم سخر الصوفية من أهل الظاهر ووصفوهم بالغلظة والجفاء والقصور عن إدراك البواطن وتذوق الواجد. وليس يتسع المقام لبيان هذا

وقد وجد العلماء في سير بعض الصوفية ما يقوّي حجتهم ويصدّق دعواهم. وقد تسمى باسم الصوفية أفراد وطوائف جعلوا التصوف وسيلة إلى مآربهم وشهواتهم؛ كما قال المري :

لو كنتم أهل صفو قال ناسبكم ... صفويةٌ فأتى باللفظ ما قلبا
جندٌ لإبليس في بدليس آونةً ... وتارة يحلبون العيش في حلبا

والشكوى من الصوفية قديمة نجدها في رسالة القشيري المتوفى سنة ٤٦٥. ويقول في مقدمة الرسالة : « ثم اعلموا حكم الله أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم ولم يبق في زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أرسم، كما قيل :

أما الخيـــام فإنها كخيامهم ... وأرى نساء الحي غير نسائها

وحصلت الفترة في هذه الطريقة، لا بل اندرست الطريقة

بالحقيقة . مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء ، وقلّ الشبان الذين كان لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء . وزال الورع وطوى بساطه ، واشتد الطمع وقوى رباطه ، وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة ، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ، ودانوا بترك الاحترام وطرح الاحتشام ، واستخفوا بأداء العبادات ، واستهانوا بالصوم والصلاة ، وركضوا فى ميدان الغفلات ، وركنوا إلى اتباع الشهوات ، وقلة المبالاة بتعاطى المحظورات ، والارتفاق بما يأخذونه من السوقة والنسوان وأصحاب السلطان

ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هـذه الأفعال حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال، وادعوا أنهم تجردوا عن رق الأغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال، وأنهم قائمون بالحق تجرى عليهم أحكامه وهم عُمْى ، وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يؤدونه عتب ولا لوم ، وأنهم كوشِفوا بأسرار الأحدية ، واختُطِفوا عنهم بالكليّة ، وزالت عنهم أحكام البشرية ، وبقوا بعد فنائهم عنهم بأنوار الصمدية . الخ»

وقد حدثت بعد القشيرى أحداث . ونجمت مذاهب ضج الناس منها ، وضيع كثير من حقائق الطريقة وحفظت صورها ، وخف على العامة وأشباههم أن يراءوا بأقوالهم الغريبة وأفعالهم العجيبة ، إذ قصروا عن إدراك الدقائق ، وعجزوا عن معرفة الحقائق

وفى الصوفية اليوم أهل الورع الصادقون الدائبون فى رياضة النفس وتهذيبها وكبحها ، وهداية الناس وتهذيبهم فى غير عجب ورياء ولا جلبة وضوضاء . ومنهم الجاهلون الذين لا يعرفون من التصوف إلا الأصوات والحركات ، والملابس والشارات . وليس لهذا الأمر إلا تحكيم الشرع ، والاتفاق على فروضه وسننه وآدابه ، وكلهم مسلمون راضون بحكم الشريعة جديرون أن يجتمعوا عليها ، ويتآخوا فيها

وسأبين فى المقال التالى التصوف الذى يلائم الإسلام والذى ندعو إليه فى هذا العصر إن شاء الله

عبد الوهاب عزام

سعد زغلول من قضيته

ألفه

عبده حسن الزيات

المحامى

عمل أدبىّ قانونى يعالج حياة سعد القضائية ، ويحاول تصوير شخصيته واتجاهاته على ضوء أحكامه التى تجلو هذه الشخصية وتومئ إلى أمور ستطالعنا بعدُ فى حياته السياسية ، كما نرى من أحكامه المتعلقة بالاستقلال القضائى لمصر عن الدولة العثمانية ، والمتعلقة باختصاص المحاكم المختلطة ، والمتعلقة بتحقيقات وأعمال رجال الإدارة ، والمتعلقة بحق الصحافة فى نقد الموظفين ، والمتعلقة بالغش والظلم فى مختلف صوره ، كظلم نظار الوقف للمستحقين ، وظلم الأوصياء والقوام للقصر والمحجورين .

وإلى هذا كله إشارة إلى مواقف قضائية رائعة من مواقفه ، وإلى سبقه المشرع بتقرير مبادئ لها أهميتها الكبرى .

وانتظم فصل القاضى الجنائى عرضاً تفصيليًّا لجملة من جنايات القتل اقترنت بظروف تثير الفكر أو تثير العاطفة .

واشتمل الكتاب فوق هذا على أحكام لغير سعد من قضاة قدامى ومحدثين مقابلة بآراء الفقه فى بعض الأحايين ؛ ومن هذه الأحكام وتلك — ما كان لسعد وما كان لغيره — عشرات لم يسبق نشرها قط رغم أهميتها .

يقع الكتاب فى ٤١٦ صفحة من القطع الكبير ، وقد جعل ثمنه ثلاثين قرشاً صاغاً

وهو يطلب من المكتبات ، ومن مكتب مؤلفه بشارع إبراهيم باشا رقم ١٠ — بعابدين